الكتاب السادس

ميلاد بطل

كفاهم فخراً أنهم كسبوا هذه المعركة
بأنه أحداً منهم لم يتزحزح عن موقفه

محمد نجيب

obeikandi.com

الباب الأول

البيعة العامة

مشت مصر فى اليوم التالى وراء فتاها ، ربع مليون يسعى فى ربع مليون ، من قلب القاهرة إلى قلعة صلاح الدين ، يتهدد ويتوعد ، وينادى بتجميع السلاح لغد . ويضيف إلى تاريخ وفاة رجل ، تاريخ ميلاد بطل .

كانت تودع شهداء الجامعة بالأمس الدابر ، فلما ثأر لهم فى طراز بطولته العالى ، مكان استشهادهم ، خرجت مصر تحتفل بميلاد شىء جديد .

مشت مصر فى « يوم أحمد عصمت » على نطاق أوسع ، لأنها هبت تحيى من ثأر لها وللسابقين من شهدائها ، وكانت فى بطولته معان شتى أدركتها بغرائزها .

لم يكن رجل حرب فصار بطل حرب .

خرج وحده يطالب بدم الشهداء جميعاً فكان أباً للشهداء لا مجرد زميل لهم .

وكان زوجا ، وكان ابنا ، وكان أبا لأبناء ، بعضهم حسبه ليشد وثاقه إلى الحياة الدنيا بأمراس كتان من المبخلة والمجبنة .

ولم يكن فريسة للغرور أو للفراغ أو للحاجة أو الاضطهاد ، فيقال طفح الكيل وفاض ، بل كان موظفاً ناجحاً ، وطياراً له فى آفاق مستقبله كما كان له فى ماضيه غزوات ، فكان له من عمله ما يشغله ويفوق نجاحه فيه الحساب . وكان من قومه فى الثروة والذروة . ذا جـــدةٍ وشباب تغريان بالرفاهة والنعماء .

وكان ، غير منتم لحزب أو جماعة ، حيث تستأثر مبادىء الجماعات بالغلاة من المؤمنين وتسوقهم إلى مصايرهم فى صميم خططها . ولم يك رجل اندفاع أو مغامرة أو زهرة فى كمها لم تتفتح بعد ، حيث الشباب لا يهاب . بل كان نضو أسفار ، وحليف تجارب ، وحمال مسئوليات وأخا حساب ، وقوة أعصـــاب ، خرج فى سبيل الله ، لا مستبقيا لنفسه فرصة فى أن يعود ، فاستشهد كما يريد ، وحيث أراد ، فى غير نكرة أو إمعة ، بل فى قائد من كبار القواد .

ولما نهد إلى القتال نهد بسلاحه الذى يحمله ، أو سلاحه الذى جمعه ، ليجود به وبنفسه معه ، ويظفر لأمته بما لا يظفر به إلا الجيش اللجب : ألا وهو رأس جيش العدو .

وكانت مئات الآلاف تتخيله وتتصوره ، من بديع صوره ، وسمات القواد فى طلعته ومظهره ، لو كان على رأس جيش فى التل الكبير لكان حقيقاً أن يحمل لمصر ألوية النصر .

وكانت وصيته لأمته فى صحف الصباح حكمة بالغة ، إلى جوار صوره وإلى جوار عمله ، فكان آية .

والحق أنها فهمته من صحيح إخلاصها وصميم إخلاصه ، ففقهت جملة الأشياء دون عناء ، ككل عمل كبير يحدث الأثر الكبير منظوراً أو غير منظور . وما فهمت مصر إلا نفسها إذ عرفت ما يجب لها على أبنائها

وكيف ينهض به من صدق . فأقبلت تحتفى باليوم السعيد من أيام ميلاد روحها الجديد .

من أجل ذلك سالت الأمة فى جنبات العاصمة لا لتشيعه ، ولكن لتبايعه ، باللغة التى تبايع الشعوب بها . فكانت البيعة العظمى فوق أنها الجنازة الكبرى .

مادرت مصر بدفن صبحت أم على البعث أفاقت من كراها
وكأن الناس لما نسلوا شعب السيل طغت فى ملتقاها (١)

وأين أيام الجنائز الكبرى من يوم مشت فيه أكبر جنازة شهدها الأحياء فى عددها وفى ثورتها ؟ فكانت يوم نداء ، للمقبلين من الشهداء . يطلق فيها الرصاص من جنبات الصفوف للاستعداد والاستعداء .

لم يكن يوم بكاء ولا يوم دعاء ، بل كان يوم المعركة أو اليوم الذى يسبق المعركة ، لتكون مصر أعز نصراً وأحضر جنداً .

لم يكن فيه من مظاهر الجنازة قدر ما فيه من طلائع الملحمة ـ لا نشيج ولا عويل ولا استعبار ، بل كزئير الأسد وصيحات الانتصار ، وأنفس ترنو إلى الصور المحمولة على الأعلام ، لفتى مقدام ، يطل على أمته من سماء المثل العالى يقول لها : « ها هى ذى هامة رأس جيش العدو . فعليك ما بقى . وأقبلى فى أثرى » .

وما هى إلا دعوة من سماء البطولة لنصر جديد فى أرض القتال . وفيها هوى مصر وعميق عقائدها ، حيث الجيوش الغازية تدنس الأرض المقدسة التى مشى عليها الرسل من « يوسف » و « موسى » و « عيسى » والمسلمون الأولون والعرب ، وتقطع الطريق على شعب يريد ليضع نفسه فى القرن العشرين بعد الميلاد ، حيث كان بين الأمم فى القرن العشرين قبل الميلاد ، قبلتها وقدوتها .

* * *

(١) شوقى فى رثاء سعد زغلول

اجتمع الشعب لتكريم المثل الأعلى للفداء عند « القبة الفداوية » ـ لكأن بعض المصادفات والأسماء من عناية السماء ـ وضاقت عليه القاهرة بما رحبت فلم يبدأ تشييع الجنازة إلا بعد أن كان أول المشاة أبعد عن الجثمان بكيلو مترات.

وتحركت الجنازة فى الضحى حتى إذا ارتفع النهار كانت تتحدر اليها من كل حى، بل من كل درب، جموع زاخرة كالنهر تنصب فيه فروعه وسواقيه. فلم تقطع الكيلو مترات الباقية إلى ميدان الأوبرا إلا فى نهار كامل: تتقدمها عربات الجيش وعربات الإذاعة بمكبرات الصوت وعربات البوليس لتنظيم المرور وجنود الجيش متشابكى الأيدى على جانبى الطريق.

وتقدمت مصر الرسمية بالوزير مندوب رئيس الوزارة والوزير رئيس الكتائب، والوزراء والكبراء والمرشد العام للإخوان المسلمين، ومفتى فلسطين، ورجال القضاء والعلماء وأساتذة الجامعات ورجال الدين، ورجال الصحافة يحملون على الأعلام أسماء الصحف، ومندوب القيادة العامة للقوات المسلحة، والشيوخ والنواب، ورجال الأمم العربية وممثلى الهيئات السودانية ورجال الإدارة ورجال الجيش والبوليس على اختلاف وحداته.

وتتابع ممثلو الأفراق والجماعات فكانت مصر كلها حاضرة، فى فرق للفدائيين فى ريعان شبابها، وأخرى لم يسلخ رجالها العشرين ربيعا، إلى جوار صفوف جامعة القاهرة ومندوبى جامعة الاسكندرية وصفوف جامعة إبراهيم وشباب الأزهر، والعمال الحكوميين بالوزارات والمطبعة الأميرية والترسانة وعمال النقل وعمال الترام، والمدارس الثانوية مدرسة مدرسة والمدارس الابتدائية عشرات، ثم عامة الأمة من سائر المشيعين. وما هم إلا مصر فى براءة طهرها تعرض نفسها فى يوم له ما بعده... بل كان

ثم ايطاليون ويونانيون يهتفون مع الهاتفين ويرفعون أكفهم وقبضات أيديهم فى كبد السماء ، كأنما يتوعدون عدواً مغيراً من وراء السحاب ويقولون « مصر للمصريين ونحن من مصر » .

وسالت أنهار الصحف الكبرى والصحف الأخرى غداة الاستشهاد يوما بعد يوم ، صفحات بعد صفحات ، فياضة بالدراسات عن البطل الجديد فى حياته ونشأته ومعركته ، فكانت الحديث المهم والمثل الملهم ، والموقعة الكبرى فى « حرب القنال » .

ووصفت الصحافة يوم ١٥ من يناير ، كما سجلت يوم ١٤ من يناير بما تقدر الأقلام عليه . وفى ذلك بعضما تقول إحدى الصحف : « لم يكن أمس يوما واحداً من حياة مصر بل كان سنين طويلة عاشتها مصر ممتلئة الصدور بالكرامة مزدهية القلب بالعزة فخورة بأن ركب التاريخ يودع ابنها البار وشهيدها البطل أحمد عصمت إلى مقره الأخير بعد أن أثبت للدنيا بأسرها أن مصر تنجب الرجال ، أى الرجال ، وأن أبناء مصر يدفعون عنها ببذل الروح والنفس ، يدفعون عنها بالدم المراق والعمر ، أقل ما يخدش كرامتها حتى لو كان سباً وضيعا يستفرغه من طبعه الوضيع وقح من سفهاء الانجليز .

« ولم يمتلىء أمس بشعور واحد من قلب مصر بل لقد انصبت فيه مشاعر كثيرة وحارة كانت جميعها تلتقى عند تخليد البطولة ، عند تمجيد الحرية ، عند تقديس الفداء . لقد طرحت القاهرة أمس بكل من فيها . طرحت الأعمال عن كاهلها وتوقفت فيها كل معالم الحياة الصاخبة المنهمكة لتتسابق عند المكان الذى تقرر عنده أن تحمل مصر نعش الفقيد على الأعناق وكان البارحة كأنه يوم بعث ذهل الجميع فيه الا عن الشهيد ...

تزاحمى . . تزاحمى . . . .

أيتها الأنفس المشتعلة بالفخار . تزاحمي تزاحمي أيتها القلوب الخفاقة بالعزة . تزاحمي أيتها الأرواح المتطلعة للحرية . . تزاحمي تزاحمي أيتها الألوف المؤلفة من شعب مصر . وميدي يامصر واضطرمي أفواجا أفواجا وأنت

إلى جنة الخلد ياعصمت

تتدافعين بالايدى و بالمناكب، وأنت تتسابقين بالآلاف المؤلفة إلى القبة الفداوية . إلى المكان التاريخى الذى شهد مصر تحمل عنده على الأعناق شهيدها الخالد أحمد عصمت إلى مقره الأخير » .

* * *

هى ذى مصر تعلم الغرب مرة أخرى أن النصر عمل من أعمال النفس. وأن الاستعمار يلفظ فيها آخر أنفاسه كما لفظت فيها الغزوات الصليبية آخر أنفاسها . وما الاستعمار فى حقيقة أمره إلا الحـــرب الصليبية قد استحالت حربا عصرية ، لامتصاص دم الشعوب الضعيفة .

ولم تعد مصر ضعيفة، بل أصبحت مدرسة جهاد تعلم المشرق والمغرب وبنى العروبة ، حيثما كانوا ، كيف يضحون فى سبيل أوطانهم.

إليك مثلا بعض فقرات، معربة، مما حوته افتتاحية إحدى الصحف الفرنسية بالجزائر(١).

مصر فى المعركة

« استشهد الطيار أحمد عصمت برصاص الإنجليز إذ رفض أن يفرض عليه الإنجليز قانون سيادتهم فإلى ذكرى ذلك الطيار الشهيد الشاب ، والأب السعيد لأطفال ثلاثة ، الذى وهب روحه فى وقار وكرامة ، لأنه يعرف أنه إذا روى البذور بالدموع ستجنى أمته سنابل الحب فى سرور وجذل :

لنقلها مرة أخرى ولنكررها دائما : إن الوطنية هى روح الكفاح.

ومصر التى أسمع منها الآن وقع قطرات الدمع تروى شعورها العام بهذه الروح ، تتردد فيها عبارات الوطن والشرف والتضحية كما تتردد

---

(١) الجمهورية الجزائرية للكاتب الجزائرى الكبير مصطفى بشير بتاريخ ١ / ٢ / ١٩٥٢

العبادات فى الصلوات الخمس ، وقد عزمت كرامتها أن تقيم الدليل الأبدى على عظمتها ، ببذل دمها . وبهذه الفكرة التى تعلو على كل اعتبار سياسى ثانوى ، هب بنوها إلى منقطة قنال السويس يواجهون جيوش المستعمرين التى جيشها هنالك تشرشل (لحماية التجارة الدولية) .

وهكذا تلقى مصر على العالم عامة والعرب خاصة درسا رائعا فى الكرامة ، وتقف وحدها لا تستمد العون إلا من قواها المعنوية وتبعث فتيانها إلى الموت راضية بتضحية مصالحها وتقدمها الحاضر فى سبيل الخلاص من مستعمر يتلمس الثغرات لخنقها وهدم استقلالها . وعلى هذا يرمى الإنجليز ضربات البطولة التى يسددها الفدائيون إلى قلوبهم بعدم الحكمة والتبصر وبالجهل والتعصب ، دون أن يعترفوا بأنها تضحيات مادية هينة القدر فى سبيل القيم العليا ، وليس أحكم ولا أجدى مما يصنع المصريون ، فهم لا يختانون مصالحهم ولا يهدرونها بل تتملكهم أمور أعلى ، يسيرون إليها دون أن يلقوا بالهم إلى صغائر لن يكون لها قيمة إلا إذا قام الوطن على أساسه .

فليست التضحية خسارا كلها ولكنها عملية « مقايضة » تقايض فيها مصر عرضا ماديا بأعراض أعلا وأسمى ، وليس البطل تاجرا ولا سمسارا ولا رجل اقتصاد وسياسة ... لكنه يلقى فى الميزان بقيم عليا يضعها فى أساس استقلال بلاده .

ومصر إذ تمارس هذا الاتصال بشعلة البطولة المقدسة تجدد ينبوع حياتها ، وتسير فى منعطف جديد تشرق الشمس فيه . فى حين أن نجم الاستعمار الذى يستنجد له تشرشل معونة الأمريكان . . . ينكدر وينكدر . . .

فى ١٥ من يناير شيعت مصر باحتفال مهيب رفات « أحمد عصمت » إلى مقره الأخير ... وكانت بالأمس تشيع بنفس الطريقة ، وبنفس الإجماع

بطلين آخرين هما الطالبان « عمر شاهين » و « أحمد منيسى » وهما فدائيان أسرهما البريطانيون وقتلوهما بعد عذاب واصب .

وسيبقى أحمد عصمت كالنجم بين أبطال الشباب بحياته المثالية التى ترمز الى البعث العربى ، وتستفتح السبيل فى نفس الوقت أمام مستقبل مصر ، فلقد كان يستطيع بماله الكثير أن يسلك مسالك النعمة والدعة وهو وحيد أهله وسلالة أصلين كبيرين من عائلات مصر ، لكنه آثر طريق الكرامة والفحولة فى أداء الواجب ، وكان يعمل فى طليعة نسور شركة مصر للطيران من أعوام رافعاً رايات مصر فى السماء ، وكان ذلك حسبه ليحول دون انخراطه فى صفوف الفدائيين ، لكنه كان بين ساعات فراغه يهيم شطر منطقة القنال لمساعدة ضحايا الاستعمار بأموال قال « إنه مدين بها لمصر »

وهى كلمة بطل ستجعل من جسده الذى يبلى معنى خالداً لا يعروه البلى أبداً .

وفيما هو فى طريقه للمرة الأخيرة إلى القنال لتنفيذ مشروعه المقدس أوقفت قوات العدو سيارته وطلب القائد تفتيشها .. وكان «أحمد عصمت» هادىء الطبع لكن الإهانة كانت قاسية فأبى أن يخضع . وتعالت به كبرياء الأحرار على أن يسلم للأجنبى بقانون السيادة على أرض الوطن فأرداه قتيلا وجنديين كانا معه ؛ وأسلم روحه إلى بارئها .

لكنه قبل هذه التضحية القاسية لتبقى مصر فى شكتها ، حاملة سلاحها ، حتى تستتم حريتها » .

* * *

أوفد الملك السابق وكيل الخاصة الملكية إلى زوج البطل الشهيد يعلن لها « تقديره شجاعة الشهيد ويرجو لها ولأولاده أحسن العزاء وقد أمر

أن يتعلم أبناؤه بهى الدين وأحمد وفاطمة على نفقته طول مدة دراستهم كما رأت الأميرة فريال أن تقدم هدية منها ، مصحفاً كريماً إلى بنته فاطمة ،

وطلب صورة للفقيـــد لضمها فى المتحف الحربى إلى صور أبطال حروبنا .

كانت هذه التحية من الملك هى التحية الوحيدة التى تقدمت منه فى كل حوادث الاستشهاد فى حرب القنال .

وما كانت التحية لأحمد عصمت أو لأطفاله أو لآله ، فإنما راع الملك من حرب القنـال حرصاً على الملك . لكنها البطولة العليا ، أو البيعة العظمى ، بحلجاتها المدوية تخيف الذين يخافون من الخوف نفسه ، فلا يختفون ولا يستخفون . ولا يملك المكابر إلا أن يحنى هامته أمامهـا . وأول الذين يحنون هاماتهم أمامها هم العدو .

تظاهرت كثرة المدن مظاهرات صامتة أو صاخبة . وسمع المصلون فى خطب الجمعة ١٨ من يناير سنة ١٩٥٢ أئمة المساجد وشـــيوخ الوعظ يستنهضون الهمم من مثاله العالى ، وأطلقت البلدان على شـوارعها اسمه ؛ وسمت شركة طيران طيارة لها باسمه ، وسمى الآباء مواليدهم باسمه ، ومنهم من ذكره عندما ولد له فى باريس .

وأعلن شباب الجامعة إقامة تمثال للشهيد . وسمت بلدية القاهرة باسمه أكبر الشوارع فى منطقة عين شمس « شارع الشهيد أحمد عصمت »

وأذاع الراديو المصرى فى الثامنة من مساء ٢٤ من ينـــاير على موجات العالم تحت عنوان [اهم حوادث الأسبوع] بلسان واحد من النواب الأحرار فى مجلس سنة ١٩٥٠ كان من أصدقائه الخلص .

« ظاهرة من ظواهر البطولة لم يسبق لمصر بها عهد . . ذلك أن فتى مصرياً من أكرم أرومة وأشرف خؤولة وعمومة ، هو البطل الشهيد

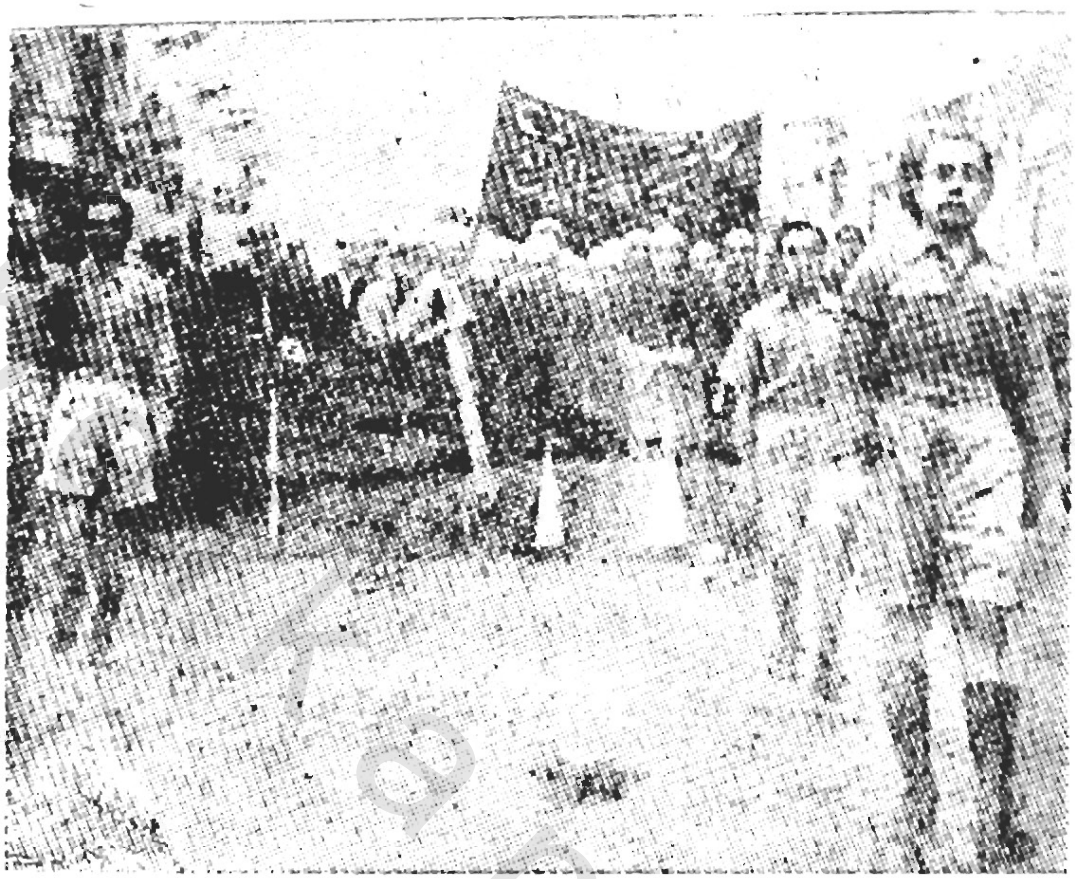

الجنازة الصامتة يتقدمها رجال الدين ظنطا فى ١٥ من يناير سنة ١٩٥٢

الطيار أحمد عصمت . ودع أهله وأ فاله الثلاثة وداعا ابويا عاطفيا حاراً وكأنما كان يعلم فى قرارة نفسه أنه الوداع الأخير . وركب سيارته ميمما شطر المنطقة التى يستشهد فيها الأباة من بنى وطنه غير منتم إلى حزب سياسى ولا هيئة أو جماعة بل بوازع من قلبه الكبير النابض بالوطنية السامية، بدافع نقى من إيمانه الكامل بكرامة وطنه . فواجه المستعمر بمفرده وفى وضح النهار وعلى مرأى ومسمع من مواطنيه الذين استوقفهم المستعمرون فى منطقة من نقط التفتيش . فانبرى لكبير القوم وقائدهم يرفع فى وجهه صوت مصر التى لا تصبر على الهوان . ولم تثنه المدافع المسددة والجند الحاشدة ، فلما نأى كبيرهم بجانبه واستكبر ، أقدم الطيار على الموت المحقق فروى أرض الكنانة من دم البريجادير ودماء حراسه واستشهد أحمد

لتوه بطلا للأبطال ، وسيداً للرجال ، ومعلماً للشجاعة والمثل الشرود بين الأمثال .

وخرجت مصر كلها تحتفل بميلاد البطل الشهيد ولا أقول بتشييع جثمانه الطاهر ، فإن الأبطال لا يموتون . وإنما هم يولدون من جديد ! ذكراهم ماثلة للعيان ومثواهم فى كل قلب وأسماؤهم مفخرة كل لسان .

بلى .. أصبح أحمد عصمت معلما من معالم أمتنـــا . وهرما من أهرام تاريخنا . يضاف إلى القيم العليا التى تقوم بها مصر قبل أن تقوم بكنوز ثراها ، بما تخلعه على الأمة من صفات تعلى مستواها ، فوق ما تعليه القيم المادية ، كمثل ما ترتفع القيمة الذاتية للمعادن عندما يضاف إليها وصف الذهب . وزادت قيمنا العليا قدر ما خسرت من قيمتها إنجلترا . « وثم دائماً قوتان تصطرعان ـــ كما يقـــول عبقرى القوة نابليون نفسه ـــ هما السيف والروح ، لكن الغلبة دائماً للروح مع امتداد الزمن » .

الباب الثانى

المذبحة والحريق

المذبحة :

استطرد أشبال القنال للقتال وارتفعت فضائل الوطنية المصرية إلى ذروتها . فاتجهت كلها إلى تلك البقعة المرموقة بآمال مصر حيث يسيل الطهور من دمها ، واحتدم الجهاد وتعالى الاستشهاد .

وكانت أفاعيل العدو فى منطقة التل الكبير فى الأسابيع الماضية تنبىء عن معركة كبيرة يحشدون الآلاف لها ، فلما لطمتهم مصر لطمتها فى ١٤ من يناير، جن لهم جنون ، فلم تعد الحرب عندهم حرباً ، بل استحالت مذبحة ، تبرر الغاية فيها كل وسيلة لها .

فى ١٥ من يناير سلطوا المدفعية الثقيلة على مدينة التل الكبير وحاولوا اقتحام حمادة التل الكبير ، فردهم الفدائيون وجنود البوليس مدحورين .

فانقضت القوات البريطانية فى الغداة على بلدة التل الكبير وأسرت ١٥٠ من الجنود ومعهم قائدهم وهو لواء بالبوليس ، ونشبت بينهم وبين الفدائيين مواقع اشتركت فيها الطائرات للمرة الأولى فى منطقة التل

الكبير تقاوم رجالا فى القرى ! وفى غدائذ قطعت أوصال محافظات القنال ، فمنعت المواصلات الحديدية فيما بينها ، وأعلنت إنجلترا أنها تحارب فى القنال صونا لسمعتها . .

أما أنها الحرب فهنيئاً لها الحرب العظمى مع الفدائيين !

وأما سمعتها فهل تراها بقيت لها سمعتها ؟

وفى الغداة أقبل طراد بريطانى من أسطول البحر الأبيض المتوسط على ميناء بور سعيد !

وما يريدون إلا تكرار حادث ضرب الإسكندرية منذ سبعين عاما ، وتحريض الجاليات الأجنبية للانتقاض على وطنها الثانى ، مثلما انتقضت من سبعين عاما !

وفى ٢٠ من يناير احتلت جنود المظلات جزءاً من مدينة الاسماعيلية ، واستولت على مقر البوليس والمبانى العامة وطردت الأهلين من منازلهم ، ونقض الجنرال « أرسكين » عهده باعتبار مدن القنال مدناً مفتوحة . . !

وفى اليوم التالى نشبت معركة بين القوات البريطانية تظللها الطائرات ، وبين الاهلين غير المسلحين فى الاسماعيلية ، واعتدى الإنجليز على مسجد الاسماعيلية ، واقتحموا دار المحكمة والنيابة ، وعبثوا بملفات القضايا .

هكذا لم يبق إثم لم يبوءوا به ، فلم يتورعوا عن الاعتداء على دور العبادة وعلى معابد العدالة !

وأذيع إخفاق « تشرشل » فى رحلته إلى أمريكا يوم وقف فى « الكونجرس » الأمريكى يستضحك نوابه بأنه لا يستجدى أموالا لبريطانيا ، ولكنه يستعدى جنوداً أمريكية للدفاع عن القنال !

ولكن ضد من ؟ ضد جماعة الفدائيين من شباب الجامعات المصرية !

وضد مصر التى تطالب بحريتها !

وفى الغداة فقدوا إربهم ،فأعدموا ثلاثة من الوطنيين رمياً بالرصاص فى أثناء حملة تفتيشية فى مقابر الإسماعيلية ! وفى اليوم التالى أخذوا فى تشريد أهالى المدينة وعزل أحيـــائها ، وحشروهم زمراً مستكرهة لتصويرهم ، والمدافع وراء ظهورهم، ليقول الإنجليز إن المصريين فى القناة هادئون هانئون .

وفى نفس اليوم أعلن وزير الداخلية المصرية أن وحشية مجازر الإنجليز بالقناة قد فاقت مجازرهم فى « دنشواى »

وفى الغداة ٢٤ من يناير نسف الفدائيون مخازن الذخيرة ومستودعات البنزين فى معسكر « أبى سلطان » واستمرت الانفجارات والحرائق أربع عشرة ساعة ، فعلا صياح المذيعين من محطات « لندن » . واحتل الإنجليز فى مصر بلدة « جنيفة » بالدبابات وأسروا رجال البوليس فيها .

وفى نفس اليوم نشرت الصحف أن بريطانيا تشترط لمفاوضة مصر قبل الجلاء أن يكف الفدائيون عن مهاجمتها فى القنال .

فإذا كان الجمعة ٢٥ من يناير وقعت الواقعة التى كانوا لها يمهدون . . فأنذر الجيش البريطانى المحافظ المصرى وقوات البوليس المصرى فى الاسماعيلية بالتسليم لجيش العدو فرفض المحافظ الإنذار ، ففتحت أبواب جهنم على دار الحكومة المصرية وجنود البوليس ومقر بلوكات النظام وضباطهم ... وانقض الإنجليز يذبحون البوليس ! الذى لا يحمل إلا عصى البوليس أو بنادقه وحلله وشاراته ! ويهدمون محافظة الإسماعيلية هدما بالدبابات وفرق المظلات ! وصاح الجنرال البريطانى بهم ليستسلموا . فكان جواب مصر على لسان ضابط يسيل منه الدم « لن تتسلموا حجراً واحداً إلا فوق أشلائنا »

استشهد ٤٦ ضابطاً وجندياً من جنود البوليس ، وجرح ٨٦ فى طراز من البطولة مقطوع القرين ، وأسر الإنجليز نحو ١٠٠٠ من البوليس المصرى

وأعلنت الصحف أن « لندن » وافقت مقدما على هذه الخطة من ذبح رجال البوليس ! وهدم دار الحكومة ! وأنه قد أبحرت إحدى عشرة سفينة حربية كبيرة من مالطة إلى المياه المصرية ، ونقل لواء « العاصفة » الإنجليزى من قبرص إلى منطقة القنال .

وما أرسلت فرق « العاصفة » ولا السفن الحربية الكبيرة إلا لحدث ضخم سيحدث ، بعد إذ أخفقت فى استدراج الجيش المصرى ، وأفلحت فى أسر قوات البوليس المصرى وقتلها وتشتيتها على مبعدة من حيث يجب أن تكون .

ولئن هنئت مصر برجالها ، إن إنجلترا خليقة بأن تهنىء نفسها بالجيش البريطانى ، الذى عرف كيف يذبح رجال البوليس المدنى ، وهو بحلله السود كالراهب فى مسوحه السود ، كلاهما يحمى حرية الأشخاص وحرية الأنفس ، وكلاهما يقاوم الجريمة ، وكلاهما جدير بالحماية والاحترام ، فى أبجديات الحضارة ، وقواعد الحرب ذاتها .

عرف البوليس المصرى كيف يرفع اسم مصر فى الخافقين . فكان كمثل حرس نابليون « يموت ولا يستسلم » . بل كما قال عنهم « الرئيس محمد نجيب » بعد عام أمام النصب التذكارى الذى أقيم لهم شكراً ، وذكرا :

« كفاهم فخراً أنهم كسبوا هذه المعركة بأن أحداً منهم لم يتزحزح عن موقفه »

الحريق :

كان طبيعياً وإنسانيا أن تتظاهر قوات بلوكات النظام فى الغداة ٢٦ من يناير سنة ١٩٥٢ ، لتزحف إلى القنال فتشاطر قرناءها مصايرهم فى الدفاع والاستشهاد ، بل أن تنهض مصر عن بكرة أبيها غضبا لهم ، وأن يتظاهر

طلبة الجامعات محتجين على البربرية التى ذبح بها البوليس المصرى ، وكان الملك قد دعا الى قصره ضباط الجيش والبوليس ليطعموا على مائدته غداءهم فى ذلك اليوم احتفالا بميلاد ولى عهد ولد له .

ولم يكد يعتدل ميزان النهار حتى اشتعلت الحرائق فى بعض ملاهى القاهرة ومشاربها ومتاجرها الأجنبية والمصرية على سواء، وكان البوليس الباقى فى القاهرة أعجز من أن يقاومها بعد أن تفرقت قواه فى بلاد القنال، وعجزت سلطات الأمن فى وزارة الداخلية عن أن ترأب الصدوع، إلا أن تنزل قوى الجيش إلى شوارع العاصمة ، وشجر الخلاف — والمدعوون يأكلون — بين الحكومة والملك فلم يقبل نزول الجيش إلا بعد أن قبلت شروط الملك آخر النهار .

فأعلنت الأحكام العرفية، فى بساطة، بناء على طلب الملك ! وفى مصر كلها ، لا فى العاصمة وحدها !

ووقع ما لم يكن فى حساب الحكومة ولكنه كان فى حساب سواها! أن الإنجليز والملك، معاً، قد استفادوا من الحوادث جميعاً! فتسلم الملك الحكم! وسيق الأحرار إلى المعتقلات ، وأعفيت الوزارة فى الغداة ، وأسكت صوت مصر فى قصر « شايو » بباريس حيث كان وزير الخارجية ينزل الصفعات ، كأنها الصعقات ، على الإمبراطورية البريطانية .

ونجح الحكم الشعبى نفسه دون أن يدرى ما دهاه !

وأصلحت الخيانة الداخلية بال وزارة الخارجية البريطانية .

وولیت الحكم وزارة لم تحم ظهور الفدائيين، فلم يستطيعوا أن يحاربوا العدو الخارجى من الأمام والعدو الداخلى قد برز لهم من الوراء .

وتلاحقت الوزارات ، مثنى وثلاث ورباع وخماس ! ست وزارات فى ستة أشهر !

وخفى النور ولم تخب النار .

كان أسوأ الناس ظناً بالإنجليز يخالهم يستدرجون البوليس المصرى كله للقتال ليأسروه أو ليقتلوه ، فيجردوا البلاد من شرطتها ، ثم تدور المذابح ويقع التدخل ويعاد تمثيل رواية صيف سنة ١٨٨٢ فى الإسكندرية بالجيوش والأساطيل .

لكن الذى وقع فى ذلك اليوم أمكن الإنجليز من أغراضهم جميعاً ، فى براءة عذرية إنجليزية ! على حين كربت مصر لما ألم بها وألقيت عليها تبعات الحريق دون تمحيص . وبعد أن كانت مذبحة البوليس قد هاجت مشاعر العـــالم من أجل مصر ، عشية ، فغفر العالم فاه مشدوها فى الغداة ، مما حدث فى مصر ، وأنساه الحريق حينا عوار الاستعمار .

ولكن السؤال سيبقى قائما : ما الحقيقة فى مؤامرة حرق القاهرة ؟

وإلى أن يجد هذا السؤال جواباً مسلما سيبقى مهدداً ، سلام حواضرنا وعواصمنا ومعاهد القاهرة ، التى آلت الى الحضارة المعاصرة ، تحايا من القرون الغابرة ، ليس لها نظائر . ولن يغمض جفن لحكومة يقظى حتى تضع اليد على مظان هذه القارعة التى جدلت بها مصر فى معركتها المظفرة .

وإلى أن يتم التحقيق فى أسباب الحريق ، سيكفينا قدر مسلم ، من غير حاجة لتحقيق ، هو أن الحرب التى شنها الإنجليز على أسباب الأمن عندنا ، واستدراج بوليسنا الى القناة ، وذبحه ، وأسره ، وإبقاء القاهرة بلاجند ، قد مكنت للهياج أن يتفاقم ، وللفتنة أن تعم ، وللنار أن تشتعل وتستفحل ، أى للواقعة أن تقع ، وللانقلاب أن يتم .

أجل : ستدير إنجلترا وجهها للمستقبل ، وفيه بعض آثار ذلك الحريق ، وعليها كسف من المسئولية عن أسبابه .

وإذا كانت كسبت معركة فإنها لم تكسب الحرب .

* * *

سبحانك رب ، ولك الحجة البالغة ، إن مصر كنانة الله ، من أرادها بسوء قصمه الله . فلئن كانت حرائق ٢٦ من يناير خيانة كبرى إنها كشفت للشعب خصومه مرة أخرى .

فلم يك معدى عن مواجهة الخصم الداخلى والخصم الخارجى فى وقت معاً . وكان على الأسلحة المصرية الفتية أن تنهض برسالتها بسواعد الأبطال من أمثال « أحمد عصمت » . وفى ظلمات اليأس دقت نواقيس الزمن ، وقامت ثورة الجيش (٢٣ — ٢٦ يوليو) لتخلع الملك ، وتدير وجهها الى الميدان الخارجى ، بعد ان حمت ظهرها فى الميدان الداخلى .

وطلع الفجر الجديد .

وأصبحت مصر لنا ... فاستطاعت أن تصنع الكثير الكبير فى بضعة أشهر . وستصنع على اسم الله ماهو أكثر وأكبر . وما الانتصار الا إرادة أن ننتصر .

أصبحت مصر للمصريين . فصنعت فى بعض عام ما لم تقدر عليه من قديم الزمان . لم يعد تاجها حلية لرجل . ولا أرضها الكثيرة وقفا على طائفة . وانفتحت أمامنا الطريق لنبلغ حيث نكون فى الوطن كما كنا فى الدين « خير أمة أخرجت للناس »

فما هذه الثورة الثالثة فى « نهضة منتصف القرن » ، بيضاء من غير سوء أو إهراق دم ، إلا آية أخرى على أن نهضتنا لن تتأخر أو تتقهقر . وأنها دورة من دورات الزمن ، بالغة شأوها بإرادة الله ، لا معقب لأمره . ولا معوق لقدره . حقيق علينا أن نحمل فيها أعباءنا ـ أيا كانت وأينما كنا ـ فى حقول الحضارة أو ميادين التضحية .

وستبقى ثورتنا الثانية فى القنال ورقتنا الرابحة فى مجامع الأمم المتحدة ، والصوت المسموع فى منتداها .

فلن يكون لك صوت إلا أن تكون قويا .

ولن يكون سلام مع استعمار .

وستطلع ، كما ستطلع الأجيال المقبلة ، إلى آيات البطولة التى سطرها فى ألواح تاريخنا أساد القنال . نرى فى أنوارها وجه الوطن الغالى ، فلا تعترضنا عقبة إلا اقتحمناها . فبذلنا كل شىء ، من أجل مصر .